﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ٣٦﴾ [ق: 36]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من التَّرهيب الأخروي إلى التَّذكير بسنن التَّرهيب الدُّنيوي

بعدَ أن أنذرتِ السورةُ الكافرين فيما سبق من آيات بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم؛ ناسب أن تُنذِرَهم، وتُحَذِّرَهم بما يُمكِن أن يُعجِّل لهم من العذاب المُهلِك، والإهلاك المُدرِك، ببيان ما حصَل للأمم الكافرةِ قبلَهم[1]، فهو انتقالٌ من التَّرهيبِ والتَّرغيب بما سيكون في عالَم الغيب، إلى التَّرهيب بما كان في عالَم الشَّهادة في الزمن الماضي.

الانتقالُ من ذكر بعضِ الأُمَم إلى ما هو أعَمُّ وأشمل

ومن المناسبة كذلك: أنَّه لمّا ذكر سبحانه في أوَّل السورة تكذيبَهم بالقدرة على اعترافهم بما يُكَذِّبُهم في ذلك التكذيب، ثم سلّى، وهدَّد بتكذيب الأمم السابقة، وذكر قدرتَه عليهم، وأتبَعَه الدلالةَ على كمال قدرته، إلى أنْ خَتَم بالإشارة إلى أنَّ قدرته لا نهايةَ لها، ولا تُحصر بحدٍّ، ولا تُحصى بعدٍّ؛ ردًّا على أهل العناد وبدعة الاتِّحاد؛ عطف على قُدرَتِه في إهلاك تلك الأمم ما هو أعمُّ منه بشموله جميعَ الزمان الماضي، وأدلُّ على واسع القدرة وتحقُّقِ الإرادة[2].

الانتقالُ إلى الموعظةِ، وبيانُ ما أجملته السورةُ مِن الوعيد

وفي الحديث عن إهلاك الأمم السابقة انتقالٌ أيضًا إلى الموعظة بعد الاستدلال على إمكان البعث، بقوله: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾ [ق: 4]، وما فُرِّع عليه من قوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ [ق: 15]، وفي هذا العطفِ الوعيدُ الذي أُجمل في قوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 149.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 434.

نُوحٍ﴾ [ق: 12]، إلى قوله: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق: 14]، فالوعيد الذي حقَّ عليهم هو ما بيَّنه قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَهْلَكْنَا﴾: (هلك) أصْلٌ يدلُّ على كَسْرٍ وسُقوطٍ، فيُقالُ لِلْمَيِّتِ: هَلَكَ، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ [النساء: 176]، وقال مخبرًا عن الكفّار: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: 24]، ويُقال للعذاب والخوف والفقر: الهَلاكُ، وعلى هذا قوله: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام: 26]، وقوله هنا: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾[2].

2) ﴿قَرْنٍ﴾: (قرن) أصْلٌ يَدُلُّ عَلَى جَمعِ شَيْءٍ إلَى شَيْءٍ، ومنه القَرْنُ: وهم القَوْمُ المُقْتَرِنونَ في زمنٍ واحد، والجَمعُ قُرونٌ، قالَ تعالى: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان: 38]، وقال هنا: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾[3].

3) ﴿بَطْشًا﴾: (بطش) أصْلٌ يَدُلُّ عَلَى أخْذِ الشَّيْءِ بِقَهْرٍ وغَلَبَةٍ وقوَّةٍ، وعَلَى تناوُلِ الشَّيءِ بِصَولَة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء: 130]، وقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج: 12][4]، فقوله هنا: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾، أي: أشدُّ منهم قوَّةً وقُدرَة.

4) ﴿فَنَقَّبُوا۟﴾: (نقب) أصْلٌ يَدُلُّ عَلَى فَتحٍ في شَيءٍ، ومنه: نَقَبَ الحائِطَ يَنْقُبُهُ نَقْبًا، والنَّقْبُ والمَنْقَبَةُ: الطَّريقُ في الجَبَلِ، وقوله تعالى: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾، أي: ساروا في النُّقوبِ، وهي الطُّرقُ[5].

5) ﴿ٱلْبِلَٰدِ﴾: (بلد) أصْلٌ يدلُّ على صَدْرِ الشَّيء، يُقالُ: وضَعَتِ النّاقَةُ بَلْدَتَها بالأرْضِ؛ إذا بَرَكَت، والبَلَدُ: صَدْرُ القُرَى[6]، والمكان المحيطُ المحدودُ المتأثِّر باجتماع قطّانه وإقامتهم فيه، وجمعه: بِلاد وبُلْدان، قال تعالى: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾.

6) ﴿مَّحِيصٍ﴾: (حيص) أصْلٌ يَدُلُّ على مَيْلٍ في جَوْرٍ وتَلَدُّدٍ، يُقالُ: حاصَ عَنِ الحَقِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 322.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك)، والرّاغب، مفردات القرآن: (هلك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن)، والرّاغب، مفردات القرآن: (قرن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطش)، والرّاغب، مفردات القرآن: (بطش).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقب)، والرّاغب، مفردات القرآن: (نقب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلد).

يَحيصُ حَيْصًا؛ إذا جارَ، ومِنَ البابِ قَولُهُم: وقَعوا في حَيْصَ بَيْصَ، أي: شِدَّةٍ، والمحيص: المنْجَى وموضع الروغان، يقال: حاص؛ إذا راغ، وكلٌّ ﴿مَّحِيصٍ﴾ في القرآن، فهو بهذا المعنى[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في الحديث عن مصائرِ السّابقين تهديدٌ للمنكِرين المعاصرين

تُبَيِّن الآيةُ أنَّ اللّه تعالى أهلك كثيرًا من الأمم السابقة، والقرونِ الماضية بعذابٍ شديدٍ عاجلٍ؛ لمّا كذَّبوا الرُّسُلَ، وكفروا بالبعث، مع أنَّهم كانوا أشدَّ من مشركي قريشٍ قوَّةً وأكثرَ جمعًا، وكانوا أكثرَ ضربًا في الأرض وسَيرًا فيها، لكن حينَ نزل بهم بأسُنا؛ حاولوا الفرار، فلم يجدوا مكانًا يهربون إليه، بل نزل بهم عذابُنا، فدمَّرَهم تدميرًا[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

احتمال الاستئناف والعطف بحسب الرَّبط بين الجُمَل

تحتمل الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أن تكون استئنافيَّة، عُبِّر بها؛ للتنبيه إلى ما في الكلام بعدها من عِظَةٍ تنفع الكافرين، وتهديدٍ بإمكان إهلاكهم - كما أهلك اللّه تعالى مَنْ كانوا أشدَّ منهم بطشًا - إن لم يتَّعظوا، ويتوبوا[3]، وتحتمل أن تكون الواو لعطف ما بعدها من العِظَة على ما سبقها من الاستدلال على قدرة اللّه تعالى على البعث، وهذا العطفُ بمنزلة انتقالٍ من الاستدلال إلى الموعظة[4].

نوع (كَم) ودلالتُها:

ما أكثرَ الأممَ المُهلَكة بسبب الكُفر والعناد!

التعبير بـ(كَم) الخبريَّة في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾، يدلُّ على كثرة الأمم والقرون التي أهلكها اللّه من قبل،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيص)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حيص).
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 351.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 297.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 322.

ممّا يؤكِّد قدرتَه على إهلاكِ مَنْ هم دونهم في القوَّة والبطش، مِن أمثال كفّار مكَّة الذين يُصِرّون على إنكار البعث، ويَكفُرون بما جاء به الرسول ﷺ، ويعاندونه.

نكتةُ التعبير بالإهلاك ماضيًا:

عبَّر النظمُ الكريمُ بفعل الإهلاك ماضيًا في الآية: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾؛ لتأكيد حصولِه وتحقيق وقوعِه من غير شكٍّ أو ريب، ونكتة استعمال مادَّة الإهلاك؛ لبيانِ أنَّه إهلاكٌ ماحِقٌ، لا أثرَ لتلك القرون الخالية والأممِ البائدة من بعد ما وقع.

دلالةُ الإسنادِ لضمير العَظَمَة:

أُسنِد فعلُ الإهلاكِ إلى ضمير العَظَمَة في قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾؛ للإشارة إلى شدَّته وقوَّته، وبيانًا لمدى سهولته على الله تعالى بما له من العظمة والاقتدار، مع ما فيه من الإيماءِ إلى الغضب الإلهيِّ على كلٍّ من اقتفى أثرَ السّابقين وطريقتَهم في الموقِفِ من الدَّعوة بالعناد والكفر، ففي الفعل إيماءٌ إلى أنَّ من أهلك السّابقين؛ بسببِ كفرِهم وعنادِهم هو القادر على إهلاك اللّاحقين بسبب كفرِهم وعنادِهم.

الإيماءُ إلى أنَّ من أهلك السّابقين هو القادر على إهلاك اللّاحقين

نكتة التَّعبيرِ بالقَبليَّة المُضافَة:

الظَّرف في قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ متعلِّق بمحذوف حال، والضمير فيه يعود على كفّار مكَّة وما حولَها؛ جريًا على منهج السورة في التعبير عنهم بضمير الغائب؛ لدلالة المقام عليهم، وجيء به غيرَ مسبوقٍ بـ(مِنْ)، فقيل: ﴿قَبْلَهُم﴾، ولم يقل: (مِن قبلهم)؛ ليشملَ الإهلاكُ المُتَحَدَّث عنه والمُعَرَّض بحدوثه لهم جميعَ الأزمان السابقة، ففيه إلماحٌ إلى أنَّ الإهلاك طال أممًا وقرونًا يعرفونها، وطال أممًا وقرونًا لا علمَ لهم بها، فليسوا بمعزلٍ عنه، ولا في مأمَنٍ منه.

الإهلاك طال أممًا وقرونًا يعرفها الكافرون وغيرها ممَّن يجهلونها

دلالةُ حرف الجرّ (من) ودخوله على نكرة في ﴿مِّن قَرْنٍ﴾:

القرونُ التي أهلكها الله تعالى قبل كفار مكة تفوق الحصرَ والعدَّ

﴿مِّن﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد تأكيدَ وقوعِ الإهلاك، وتقويَةَ حصوله لقرونٍ سابقة، ويدلُّ تنكيرُ ﴿قَرْنٍ﴾ وتنوينُه على كثرةِ الأمم التي أهلكها الله كثرةً بالغةً تفوق الحصر والعَدَّ؛ ولذلك أثرُه الكبيرُ في الموعظة والتهديد.

فائدةُ استعمالِ ضميرِ الفَصْل:

تأكيدُ كونِ الكفّار السّابقين أشدَّ وأقوى من كفّارِ مكَّة

جملةُ: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ في محلِّ نصبٍ صفةً لـ (كَم)، ويجوز أن تكون في محل جرٍّ صفة لـ ﴿قَرْنٍ﴾، و﴿هُمْ﴾ فيها مبتدأ[1]، وقد أوثر التعبيرُ بالضميرِ لتأكيد أنَّ القرونَ التي أهلكها الله سبحانه قبل كفّار مكَّة وما حَولَها كانت أشدَّ قوَّةً وبطشًا من كفّار مكَّة، ومع ذلك أهلكهم الله، وأنزل بهم أشدَّ العذابِ وأسرعَه.

وجه التعبير بـ ﴿أَشَدُّ﴾:

لم تَحُلْ قوّة الكفّارِ السّابقين ولا بطشُهم دون إهلاكهم

جاء الخبر في قول الله تعالى: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ اسمَ تفضيلٍ من الشِّدَّة؛ دالًّا بمعناه وصيغته على تفوُّق الكفّار الهالكين على كفّار مكَّة وما حولها في أسباب البطش الظاهرة والباطنة، ما يجعل إهلاكَهم من الصعوبة بمكان، ومع ذلك لم يستعصوا على الله، ولم تَحُلْ أسبابُ القوَّةِ والبطشِ التي تميَّزوا بها دون عذابِهم وهلاكِهم، فكيف بمن هو دونهم؟ فهو تلويحٌ بيُسر الإهلاك وسرعة نزوله؛ إذا حلَّ بهم، والكلُّ على العزيزِ هيِّن.

نوعُ (مِنْ) ودلالتُها:

(مِنْ) في قول الله تعالى: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ هي الابتدائيَّة، المؤكِّدةُ تفوُّقَ الكفّار السابقين على كفّار مكَّةَ في أسباب القوَّة والبطش على اختلافها، والضمير المجرور فيه يعود إلى مُشركي مكَّةَ وما حولها.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 297.

نكتةُ تقديم شبهِ الجُملة:

إهلاكُ الكفّار السابقين أشدُّ إدهاشًا وتعجيبًا، وأكثرُ إفزاعًا وتخويفًا

قُدِّم ذكرُ الجارِّ والمجرور في قول الله تعالى: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾؛ لأنَّ الاهتمام موجَّهٌ إلى بيان تميُّزِ الكفّار الذين أهلكهم الله في الأسباب الظاهرة والباطنة، بأن جعل قوَّتَهم مُضاعفَةً، فكان إهلاكُهم أشدَّ إدهاشًا وتعجيبًا، وأكثرَ إفزاعًا وتخويفًا.

دلالة تنكيرِ ﴿بَطْشًا﴾:

لفظ البَطش في قول الله تعالى: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ تمييز، أوثر تنكيره وتنوينه لإفادة التعظيم والتفخيم، وللدَّلالة على كثرة أنواع البطش التي كانوا يمارسونها، والمعنى: كانوا أكثرَ قوَّة وأخذًا لما يريدونه بالعُنف والسطوة والشدَّة[1].

نوع الفاء ودلالتُها:

شدَّةُ السابقين سببُ غرورهم، فأقدرتهم على التنقيب

الفاء في قول الله تعالى: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ هي فاء السببيَّة الدالَّةُ على ترتُّب ما بعدها على ما قبلها، أي: إنَّ شِدَّةَ بطشِهم أقدَرَتهم على التنقيب، فبطشهم وقوَّتهم خرَّقوا في البلاد، وتصرَّفوا في أقطارها، أو جالوا في أكناف الأرض كلَّ مجال حذار الموت، وظنًّا أنَّ بإمكانهم النجاة منه، وممّا ينزل بهم من العذاب أو الهلاك، ويمكن أن تكون عاطفةً في المعنى، كأنَّه قيل: (اشتد بطشُهم، فنقَّبوا)[2].

بلاغةُ الاستعارة في فعل التَّنقيب:

إبرازُ قوَّةِ السابقين، وبيان قدرتهم على اختراق الأرض وتطويعِها

جاء في قول الله تعالى: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ التعبير بفعل التنقيب، الموضوع لثَقْبِ الأرض وخَرقِها، وفيه استعارةٌ تصريحيَّة، شُبِّه فيها التصرُّفُ في الأرض بالبناء والإعمار وإقامة السدود والقلاع في كلِّ مكان بما فيها الجبال بالتنقيب[3]، ثمَّ استعير الثاني للأوَّل استعارةً

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 435.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 390، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 133.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 323.

تصريحيَّةً تبعيَّة تُبرِز قوَّةَ السابقين، وتبيِّن قدرتَهم على اختراق الأرض وتطويعها لِما أرادوا.

دلالةُ صيغةِ الفِعل (نَقَّبوا):

بالَغَ السابقون في بناء الدنيا وعمارتها كأنَّهم خالدون فيها

عبَّر النظم بفعل النقب ماضيًا في قول الله تعالى: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾؛ بناءً على الأصل في وقوعه وحصوله، وضُعِّفت عينُه؛ للإشارة إلى مبالغتهم في القيام به، وللدَّلالة على أنَّهم فتحوا في البلاد الأبواب الحِسّيَّةَ والمعنويَّة، وخرَّقوا في أرجائها ما لم يَقدِرْ غيرُهم عليه، وبالغوا السَّيرَ في طُرُق الجبال والطرق الضَّيِّقَة، فضلًا عن الواسعة والسهول، بعقولهم الواسعة وآرائهم النافذة وطبائعهم القويَّة، وبحثوا مع ذلك عن الأخبار، وأخبروا غيرهم بما لم يصل إليهم، وكان كلٌّ منهم نَقّابًا في ذلك، أي: علامة فيه، فصارت له به مناقبُ أو مفاخر[1]، وأُسند إلى ضمير الجمع؛ للدَّلالة على قيام أفرادِ هذه الأمم باستغلال قدرتهم وقوَّتهم واجتماعِهم في النقب.

بلاغةُ حرف الظرفيَّة:

التعبير بحرف الجرِّ المفيدِ للظرفيَّة في قول الله تعالى: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ دالٌّ على أنَّهم توَغَّلوا في البلاد، وقَدَروا عليها، فساروا فيها، وطافوا أقاصيَها[2]، وتمكَّنوا منها تَمَكُّنَ المظروفِ من الظرف.

نوعُ تَعريفِ ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾ ودلالتُه:

كلُّ البلادِ كان بها كفّارٌ أشِدّاءُ، فنالوا حَظَّهم مِنَ العقاب

(أل) في قول الله تعالى: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ لتعريف الجنس[3]، فكلُّ البلاد - سواء التي يعرفها كفّار مكَّة أم التي لا يعرفونها - كان بها كفّارٌ أكثر شدَّةً من كفّار مكَّة، حريصين على بناء الحصون والقلاع وغيرها مما يظنّون به امتناعَهم من مخاطر الموت والهلاك،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 435.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 460.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 323.

أو أنَّهم نُزِّلوا - حين تمكَّنَت الغفلةُ منهم - منزلةَ الخالدين الذين لا يطرَأُ عليهم موتٌ، وما تلك الغفلة إلّا من بقايا الجحود والكفران، ويؤيِّد أنَّها للجنس قولُه ﷺ: «إنَّ اللّه نَظَرَ إلَى أهْلِ الأرْضِ، فَمَقَتَهُم عَرَبَهُم وعَجَمَهُم، إلّا بَقايا مِنْ أهْلِ الكِتابِ»[1].

بلاغة الاستفهامِ وغرضُه:

بيانُ قوَّة السّابقين لدرءِ كُفرِ اللّاحقين

جملة ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ تحتمل أن تكون في محلِّ نصبٍ مفعولًا لفعل النَّقْب، أي: (بحثوا عن المحيص قائلين: هل من محيص؟)[2] وتحتمل أن تكون استفهامًا بمعنى الإنكار، أي: (لم يكن لهم محيص)، وتحتمل أن تكون كلامًا مُستأنَفًا، كأنَّه تعالى يقول لكفّار مكَّة: (هم أُهلكوا مع قوَّة بطشهم، فهل من محيص لكم تعتمدون عليه؟)[3] وأيًّا كان التَّقديرُ؛ ففي التعبير بحرف الاستفهام في أوَّلها تنبيهٌ للمخاطَبين والمتلقّين، ولفتٌ لأنظارهم إلى أنَّ القوَّةَ التي تمتَّع بها السابقون - بما فيها الحصون والقلاع والسدود التي أقاموها، ونقَّبوا لأجلها - لم تُغْنِ عنهم شيئًا عندما نزَل بهم عذابُ اللّه وعقابه؛ بسبب كفرهم وعنادهم وإنكارِهمُ البعث، وفيه عِظَةٌ لكفّار مكَّة، وتهديد من حصول الإهلاك لهم وتحذيرهم، كما حصل لكثيرين أشدَّ منهم[4].

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

تأكيد خلوِّ الأرضِ من مكانٍ يحتمي فيه الكفّار من العذاب

﴿مِن﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد التأكيدَ، أي: تأكيدَ بحث الكفّار السابقين عن مكان يحتمون فيه من الموت أو الهلاك؛ إذا كانت الجملة مفعولًا لفعل النقْب، أو تأكيدَ نفي وجود مكانٍ يحتمون فيه من الموت أو العذاب؛ إذا كانت الجملة استفهاميَّة للإنكار؛ إذِ المعنى عليه: (ما من محيص)[5].

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2865).
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 297.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 150.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 95.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 323.

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَّحِيصٍ﴾:

لا محيصَ من عذاب الله، مَهما دقَّ أو صغُر

جيء بالاسم المجرور في قول الله تعالى: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ نكرةً؛ لما يفيده التنكيرُ من عموم اللفظ وشمولِه، أي: (هل من مكانٍ يلجؤون إليه من قضاء الله وعذابه، حتّى ولو كان دقيقًا صغيرًا؟)[1]، ففيه زيادةُ تخويفِ مشركي مكَّة، وتقويةُ ذُعرِهم من التَّعرُّض لذات المصير.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البَطْش والقوَّة والسَّطوة:

التعبير بالبطش دالٌّ على اجتماع القوَّة والقهر والغلَبَة

البطشُ: أخذ الشيء بقهر وغلبة وقوَّة[2]، وأمّا القوَّةُ؛ فأصلها التعاون، وقد تُطلق على الجِدِّ في الأمر، والعُدَّة، والبطش، والسلاح، والشدَّة[3]، وأمّا السَّطْوَة؛ فهي البطش برفع اليد[4]، ولمّا كان السياق لبيان مدى شدَّة الكفّار السابقين، وإبرازِ الفروق الكبيرة بينهم وبين كفّار مكة في أسباب القوَّة الظاهرة والباطنة، وأنَّ هذه القوَّةَ لم تَحُلْ بينهم وبين قَدَرِ الله، فأخذوا يبحثون عن مكانٍ يُنجيهم، ويمتنعون به من الهلاك؛ كان التعبير بمادَّة (البطش) أنسبَ للسياق؛ لدلالته على القدرة والقوَّة والشدَّة، وعلى القهر والاعتداء والظُّلم، بخلاف القوَّة التي قد لا تشمل تلك المعاني مجتمعة، وأمّا السطوة؛ فهي أخصُّ من البطش تخصيصًا غيرَ مقصودٍ هنا.

النَّقْب والبحْث:

النَّقْبُ في الحائط والجِلد كالثَّقب في الخشَب، وقد يُطلق على السَّير، كما في الآية التي معنا[5]، والبحثُ في الأصل: طلبُك شيئًا

النَّقْب دالٌّ على القوَّة البدنيَّة بخلاف البحث

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 435.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطش).
(3) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 391.
(4) الراغب، مفردات القرآن: (سطا).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (نقب).

في التراب، وقد يُقصد به أن تسأل عن شيء، وتستخبر[1]، ولمّا كان السياقُ لإبراز قوَّة السّابقين وبيان أنَّ شدَّتهم تفوق شدَّةَ أهل مكَّة وبطشَهم؛ ناسب التعبيرُ بمادَّة النقْب، فقيل: (نَقَّبوا)؛ لدلالته على توفُّر القوَّتين البدنيَّة والعقليَّة؛ بخلاف مادَّة البحث التي يلزمها القوَّة العقليَّة، ولا تحتاج إلى القوَّة البدنيَّة باطِّراد.

المَحيص والمَحيد والمَهْرَب:

المَحيصُ كالمحيد، غيرَ أنَّ المحيصَ معدلٌ ومهربٌ عن الشدَّة؛ يدلُّك عليه قولهم: وقعوا في حَيْص بيص، أي: في شدَّة وضيق، أمّا المحيد؛ فهو المعدل، وإن كان بالاختيار، يُقال: حاد عن الطريق نظرًا، ولا يُقال: حاص عن الأمر نظرًا[2]، وأمّا المَهرَب؛ فهو المكان الذي يلجأ إليه الإنسان في حالة الفرار، سواء أكان مذعورًا أم غيرَ مذعور[3]، ولمّا كان القصدُ تخويفَ كفّار مكَّة مما آل إليه حالُ الكفّار السابقين من ذعرٍ وتخبُّطٍ؛ ناسب التعبير بمادَّة (الحيص)، فقيل: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾؛ لدلالتها على أنَّ بحثهم كان مقرونًا بالخوف والتخبط، وكان فرارًا من شدَّةٍ وضيق؛ بخلاف (المَحيد) و(المهرب) اللَّذَينِ يقلِّل التعبير بأيٍّ منهما من تأثير العذاب وشدَّته.

المَحيصُ جامعٌ بين الخوف والتخبُّط، وهما لا يجتمعان في المحيد والمهرَب

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بحث).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 150.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (هرب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والخمسون،
سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 57 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-650-27-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 57 : المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-650-27-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4331956 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"